اعتذار إلى رَجلٍ لَعله يَغفِر لِي..!!

زينب إبراهيم الخضيري

هناك في البعيد إنسانة لها قلب شقيّ لم تستطع أن تقلّم أظفاره, أحياناً يحاكي البركان بثورته وأحايين أخرى يحاكي القمر بهدوئه وخموله حد الكسل, تنهمر موسيقى مزعجة حد الجنون تحمل ألواناً أربعة تأبي الانصياع للمألوف إلى اللامألوف. بالرغم من الموجات العاصفة التي تجتاحنا إلا أننا غالباً ما نقفز عائدين إلى محورنا الساكن لنتوازن مع مكنونات الحياة توازناً قد يخلق لنا متاعب جمة، وقد يكون ضحاياها ثُلة من البشر ممن هم ليس لهم نصيب مما اكتسبوا وكأنهم كصيّب من السَماء تجلّوا. نزخرف حياتنا بابتسامات لجينية قُدّت من فضة النجوم، ولكن هل التجّمل والزينة والأحجار الكريمة الغالية وحرائر دودة القز تمنعُ جَهل الصَبَايَا؟ ذَات مَسَاء صَاخب بالنجُوم المُتلألئة وخَارج دَورَة حَيَاة الكُرَة الأرضِيَّة، تَراءت لَديها فِكرَةٌ رَيَّانَةُ القَوام غَجَرِيَّةُ السُلوك وَلا تَخجَلُ مِنْ لَبس فُستَان عَار إلا مِن قِطعَة تَشفّ عَن تَفَاصِيل الإنسَان، فكرَة مهلكة ولكنها جميلة من وجهة نظرها, وبين صفا تفكيرها ومروة حبها تتساءل: هل تشفّ الحياة عن ماء الفرح بداخلنا لنرتقي زلفى مع كل نجمة مستنيرين بكتب الفلاسفة والقديسين وحكماء التاريخ؟ وهل من العقل أن نضع أنفسنا في دوامة نجهل اتجاهاتها كرأس مال مغامر ربما يذهب أدراج الريح وربما يعود بأكثر مما ذهب به؟ تساؤلات تضج كهدير البحار وتنساب بعنف بين جبال الروح لترُتج كل ما فيها من أمان غائب حتى الفقد؟ ولكني هنا سوف أقدم اعتذاري لرجل تعايشت معه وكاد يختفي كخط الأفق بعد المغيب... لعله يغفر لي.

استميحكم ورداً أيها القراء أن تبتعدوا قليلاً وتعتدلوا في جلستكم فالقادم أهم من المهم الذي يُربككم,,,, فهذه كلمات اعتذار موجهة إليه: اعلمُ يا آخر احتمالات الوضوح... أنني كدّرتُ نبع مشاعرك واغتلتُ وهجَ بدر كاد يكتمل بعد خمسة عشر يوماً من المرح, وخنت مهجة الشاعر فيك، عندما نخطئ بدونً قصد فهذه عادة بشرية متوالية التكرار، ولكن عندما نخطئ بقصد وسبب ونتيجة فهذه صفة شيطانية قميئة,,, وأعتقد أنني كنت الثانية.. ربما أنا الشيطان في ثوب سيدة رقيقة تحاول الانتقام من مخلوقات أضعفتها حتى الوهن,, هل استرسل أكثر نفسي العيّاثة يخامرها موشحات نفسية يتردد صداها مع مدى نفسك المتساهلة معي حد ملمس الحرير,,,, عندما نحاول أن نتوحد مع كائن بشري فنحن هنا نكثّف حضور هذين المخلوقين قد يكون من نور أو من طين أو حتى من هلام,,,, وفي مساء سعيد العينين كنت هناك وأسميتك «متلازمة الدهشة» حاولت أن أمارس ضدك حمية ذهنية حتى لا أفكر بك، ولكن عادتي المسكونة بجرثومة الاكتشاف العنيدة هي ما جعلتني أذهب إلى أعالي دهشتك، فأنت غير الغير، وقد تكون كحل قصير الأجل سوف يؤدي إلى مشكلات طويلة الأجل، وكأنك نقطة ارخميدس عندما قال «اعطني نقطة ثابتة لأرفع العالم» ترائى لي أنك هذه النقطة التي سوف ترفع عالمي العقلي، حيث رأيت فيك كذلك مقولة ماركيز «الخيال هو تهيئة الواقع ليصبح فناً». أعجبني فيك جرأتك غير المحدودة بالنسبة لي، وقناعتي باختلافك تجلّت في محاولتي مشاكستك بطريقتي العقيمة، وكما هي عادتي المريضة والتي تتوافق مع مقولة نيتشه «عش في خطر» هي ما تحفزني على العيش في عالم رتيب كرمال الصحراء. ولكنني كنت أخافك حد الهلع لأنك كحصان طروادة ظاهره نافع وباطنه ضرر أكيد, ولأنني أخاف حاولت أن استخدم ذكائي العاطفي فهو ما يمنحني هامش حرية وأمان، إلا أنني غالباً ما أفشل فأنا لست ذكيه بما يكفي لأحمي نفسي, وخريطتي العقلية لم تساعدني على الإبحار في بيئاته المختلفة، وللتجارب السابقة طعم مر كالعلقم وكشجر الحنظل البري،,,, حاولت أن أجرب طريقة زن البوذية لأكتسب صفاء عقلي وهي طريقة زازان أي الجلوس في تأمل وصمت. نعم صمت.... تأملت ملمحك الطفولي الممزوج بقليلٍ من شراسة محببة للنفس,,,, انفتحت أزرار نفسي، واندلقت روحي في سمائك ولكن تبا لكل من مر بواحتي ولوثها، اجتمعت في نفسي أجزاء كثيرة في كلّ مكتمل الفرح والحزن يتصافحان, اشتققت حكايتي من زوايا اجتماع مكسب وخسارة داخل روحي, وكأنني ازميرالدا الغجرية بجهلها وحاميها ذلك المسخ كوزومودو احدب نوتردام هل تعلم أيها المسكون بالغضب مني.... ما هو أكثر ما جذبني إلى أرضك المكوثرة بالصفاء، هو عدم توافقك مع وليم جيمس عندما قال: ليس هناك أشد بؤساً من رجل يكون إشعال كل سيجارة بالنسبة له، واحتساء كل قدح، وبداية كل نتفة من عمل، هي محل ترو ودراسة وتفكير. فأنت غير هيّاب وغير ممل. وهل تعلم لماذا أنا أخونك معك.... لأنني أؤمن بمقولة هيو بوين: إن المعلومات التوقعية تتيح تغيراً دراميا في الأداء. فأنا رغبت أن أقلب أوراق اللعب وأقامر بكل شيء حتى أستبين خفاياك المطلية بالفضة, وحتى نشكل الذهب لا بد من صهره,,, نصهره تحت نار حارة ملتهبة. ...ورأيتك كالذهب ورغبت أن أصهرك حد الذوبان لأرى أي قالب تتشكل فيه فآمنك واستظل بك في هجير الحياة..... هل تعلم أنني مصابة بصدمة عاطفية أكبر من طاقتي لعلك لم تتفهمني كثيراً، وربما اعتبرتني مصابة بالبارانويا أي جنونٍ العظمة أو الاضطهاد أو أي مرض عقلي، ولعلك كنت تتحرى الأعراض، ليتها كانت مرضاً لكان الصمت هو الرفيق والنديم. إلا أنني والذي أعرفه عن نفسي حتى الآن أنني لا أعيش حب مازوشي ولا حب أسود، ولست «دراما كوين». تعلم يا غريب الوجود.... أن قانون الحكاية تبدأ تتصاعد وتنتهي وأنا هنا لم أبدأ، فكيف انتهي, وكأنني صافحتك بلا أصابع, وهل تعلم إن علاقتي بك هي أكبر من امرأة ورجل... هي حياةٍ بشر كاملين لا تتشابه جزيئات DNA الموجودة في خلية كل واحد فيهم وإيماني أننا يوماً ما سننتقل في الحياة عبر الجزيئات هي ما تجعلني أفكر بكل شيء بطريقة مجنونة، وبمبدأ «كون آي» أي التحسين المستمر اللانهائي.... هي فقط عملية ربط عصبي لكل ما حولي. ومن هنا أعدك أنني سوف أعيد ترتيب نفسي, نحن لا نحمل دساتير إنسانية معنا, ولا خرائط او بوصلات ولا حتى حاسبات تدلنا على مكمن الخلل فينا، واعلم أن شكك الآن بي أعتى من شك ديكارت المشروط وهذا يعجبني. أعلم أنني كنت أنانية ولم أكن مثل دولة إيران توسعية بل رغبت أن أكون مثل إسرائيل دولة استيطانية احتلك بجيوشي الوهمية حد القمع, رغبت أن انتهج معك مبدأ الشفافية مثل الـ CPI منظمة الشفافية العالمية وأطبق قانون أشعة الشمس لتراقبني بعد الآن وتحاكمني. فقلبي ما زال يتربص بك حد البكاء.... هل ستبادلني ابتسامة متسامحة كسماء رائقة......؟

وهل بعد هذا كله ستغفر لي زلتي المقصودة؟

◆ الرياض

مساقات

أ.د. عبد الله بن أحمد الفَيفي

شعريّة المكان في تجَربة شاعر الشمال

مدينة عَرْعَر نموذجًا-٦

ظاهرة الأنسنة للمكان لافتة في ديوان الشاعر سلمان بن محمّد الفَيفي. وتأتي مؤكدة أن المكان في شعره ليس وصفاً خارجيّاً، أو نقلاً لألوان الطبيعة وأشكالها، وإنما هو تفاعلٌ حيّ، يستبطن الشاعرُ المكانَ فيه، فيضطرّ إلى تحويله إلى إنسان؛ كيما يتسنّى له معه الحوار والمباثّة. وفي مثل هذه الحال لا تغدو القراءة في شعره قراءة لصورة المكان في شعر، وإنما لصورة المكان في نفس شاعر، أو بالأحرى صورة شاعر من خلال مكان، بما شكّله من وعيه وما أملاه عليه من رؤية شعريّة.

ويأتي الشاعر في قصيدته بعنوان «من عَبَق الشَّمال»(١) إلى حكاية التقائه بمدينة عَرْعَر، أو بلدة عَرْعَر، إذ لم تكن فيها من مقوّمات المدينيّة إذ ذاك ما تصحّ عليه هذه التسمية (مدينة):

ولِيْ فِي بداياتِي وفيها حكايةٌ
أُمَتِّعُ نفسِيْ مِنْ تباريحها دَأْبي
فما إنْ بَدَا لِي رَسْمُهَا، قُلْتُ: بُعْدُها
كبيرٌ، وبيْ منها كثيرٌ مِنَ الرُّعْبِ
ووجَّهْتُ بِاسمِ الله رَكْبِيْ تجاهَها
وأَسْأَلُ نفسِيْ: أَينَ مُتَّجِهٌ رَكْبي؟!
ومَنْ كان يَهْدِيْنِيْ لأكنافِ عَرْعَر؟!
وكنتُ على بيدائها تائِهَ الدَّرْبِ
ولكنْ، وفي وقتٍ قصيرٍ، أَلِفْتُها
وأَصْبَحْتُ أَدْعُوْهَا بِمُتَّكَإِ الجَنْبِ
رَبِيْبٌ لها بِضْعاً وعشرينَ حَجَّةً
أَهِيْمُ بِهَا عَصْمَاءَ مَعْشُوْقَةَ القَلْبِ
ولا عَجَبٌ أَنِّي تَوَطَّنْتُ ظَهْرَهَا
تَأَلَّفْتُها جِدّاً فأَصْفَيْتُها حُبِّي

إنها تلك الأنثى الأعرابيّة، أو الظبية العصماء، التي فتنتْ شاعرَ الريف والجبال، فتنةَ الثقافة، والتراث، والمكان في آن. فلقد كان عشقُ الشاعر عَرْعَر- في جانب منه- عشقاً للصورة الأدبيّة عن الصحراء والعرب، منذ الشعر الجاهليّ، وذلك ميدانه الثقافيّ والتخصّصيّ. ولكنّ عشقاً آخر- إلى جانب ذلك- للمكان نَفسه وأهله، بما يمنحانه من شعورٍ بفضاء روحيٍّ رحب، ودماثة حياةٍ وخُلق. فكان الشاعر يُحبّ عَرْعَر حقّاً، وليس ما يعبّر عنه في قصائده من دواعي التعبير الشِّعريّ فقط، أو مراعاةً لمقتضى المناسبة الشِّعريّة. ولذلك أفرد للتغنّي بهذه المدينة قسطاً من شعره، ما كانت تستدعي التفصيل فيه موضوعات القصائد بالضرورة، لولا أن المكان كان قد بات من محرّكات الجمال في نفس الشّاعر لدى إنشائه النصّ.

ثم نقرأ من القصيدة:

وعَرْعَرُ في البيداءِ غَرَّاءُ حُرَّةٌ
تَشُقُّ المَدَى بالعَزْمِ في المَرْكَبِ الصَّعْبِ
تُشَمِّرُ من مضمارِها يَعْرُبِيَّةً
مُحَجَّلَةً مَوَّارَةً فَذَّةَ الوَثْبِ
بَنَتْ مِنْ حُبَيْباتِ الرِّمالِ مآثراً
علِى صَدْرِها تَخْتالُ راسِخَةَ الكَعْبِ
حَلتْ مِنْ سُمُوْطِ العاشِقِينَ قلائداً
على جيدِها تَسْبِيْ اللَّبيبَ وقد تُصْبي
وفي شمسِها ظِلٌّ وفي بَرْدِها دَفاً
وفي روضِها الأنسامُ تُغْني عن الطِّبِّ
ويسألُنيْ قوميْ لماذا عشقتَها
فقلتُ: لها سرٌّ معَ المُدْنَفِ الصَّبِّ
فقالوا: وهل فيها منَ الحُسْن مَطْمَعٌ
فقلتُ: أرَى فيها سَنَى الشَّرْقِ والغَرْبِ
على خَدِّها قُبْلاتُ عشْقٍ سَكَبْتُها
وكَحَّلْتُ منْ ذَرّاتِها طُرَّةَ الهُدْبِ
وإنْ غِبْتُ عنها ضَجَّ بيْ الشَّوْقُ والهَوَى
إذا كُنْتُ مدفوعاً إليها فما ذَنْبِي؟!
ورَبِّكَ إنْ جادَ الرَّبيعُ تَزَيَّنَتْ
بأزهارِها العذراءِ فتّانَةً تَسْبي
وليسٍ بعيداً أنْ تَكُوْنَ رِحَابُهَا
ظِلالا ونَلْهُوْ في حدائقِها الغُلْبِ

وهكذا، يتردّد نمط هذه صورة؛ فعَرْعَر هي المعشوقة، الغرّاء، الحرّة. وإذا كانت قد بدت للشاعر سفينة تشقّ موج محيطها في صورة من شعره، فإنها هنا، في صورةٍ بديلة، شبيهةُ فرس يعربيّة مشمّرة في مضمارها، موّارةٍ بالجمال والحُلَى. أمّا الطبيعة فلا معنى لها إلا بمقدار ما يمنحها الحُبّ من المعاني، فالشمس قد تُضحي بالحُبّ ظِلّاً، والبردُ قد يمسي دفئاً، والهجير روضاً من الأنسام تُغني من الطّب. إنه سرّ المكان الذي يدير عليه الشاعر حوارَه مع قومه حين يسألونه عن سرّ ذلك العشق، ولاسيما من شاعر وُلدَ بين جمالَ الطبيعة منذ الطفولة، فإذا هو يُؤْثرُ بلدةً صحراويّة كعَرْعَر على بلدةٍ غنّاء كفَيفاء. وتلك مذاهب العشق، التي تحدّث عنها مجنون ليلى في «حُبّ الديار»، ومذاهب الشعر حين يبوح بما فعله المكانُ الإنسانُ بالإنسان. ولقد كان حُبّ الشاعر عَرْعَر صادقاً، لم تحمله عليه الضرورة، اللهم إلاّ في بداية الأمر، ولم يكن الإلف وحده ما طوّع ذاته لتقمّصه، بل هي حاجاتٌ نفسيّة وروحيّة، ذلك أن للأمكنة أسرارها كما للناس. وشاعرنا كان في سيرته وفي شعره يضجّ بحُبّ عَرْعَر، وظلّ يحنّ إليها طيلة عمره. إنه الحُبّ القَدَر، كما تجسّد في قصيدة له عنوانها «عَرْعَر والقَدَر»(٢)، يحكي فيها تاريخ عَرْعَر، كما عاصرها:

كانتْ أبياتاً مِنَ الشَّعَرِ
تحتَ أمواجٍ مِنَ الغَبَرِ
فَوْقَ سَطحِ القَفْرِ نائمةً
فَوْقَ صَدْرِ الرَّمْلِ والكَدَرِ
في تُخُوْمِ الأَرْضِ جاثمَةً
في عُبُوْسِ اللَّيْلِ والضَّجَرِ
في لهيْبِ الصَّيْفِ- مُتَّقِداً-
تَنْفُثُ الأرواحَ مِنْ سَقَرِ
والجَمادِ القرِّ- مُنْعَقِداً-
زَمْهَرِيْرٌ بالِغُ الأَثَرِ
جاهَدَتْ والخَوْفُ يَسْكُنُها
وانْبَرَتْ في مَوْعِدِ القَدَرِ
وإذا الأَهْوالُ ذاهِبَةٌ
وإذا الأَرْزَاءُ في خَوَرِ
مَنْ رآها بَعْدَ ما بَلَغَتْ
دُرَّةً مِنْ أَنْفَسِ الدُّرَرِ
لم يُصَدِّقْ أَنَّها بُنِيَتْ
فَوْقَ هامِ الرِّيْحِ والعَفَرِ
دِيْرَةٌ طابَتْ لِقَاطِنِها
مِنْ بَنِي قَحْطانَ أَوْ مُضَرِ
أَظْهَرَ الوَادِيْ مَفَاتِنَهُ
تَاهَ بالإِسْكانِ والجُسُرِ

■■■

عَرْعَرَ البَيْدَاءَ يا بَلَداً
أَصْبَحَتْ مِنْ أَنْصَعِ الغُرَرِ
عَرْعَرٌ سَارَتْ على عَجَلٍ
في ثِيَابِ الدَّلِّ والخَفَرِ
دِيْرَةٌ جَاشَتْ بِنَهْضَتِها
زَمْجَرَتْ بالمَدِّ لا الجَزرِ
سُوْقُها فاضَتْ مَوارِدُهُ
بنَمِيْرِ الوِرْدِ والصَّدَرِ

■■■

قادَها شِبْلٌ مِنَ الجَلَوِيْ
مُسْتَنِيْرُ الرَّأْيِ والبَصَرِ
حاسِمٌ في كُلِّ نائِبَةٍ
مِثْلَ حَدِّ الصَّارِمِ الذَّكَرِ
جاءَها واللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ
فانْتَشَتْ جَذْلَى بِمُنْتَظَرِ
مِثْلَ أُمٍّ «زَغْرَدَتْ» فَرَحاً
بوَلِيْدٍ عَادَ مِنْ سَفَرِ
هَلَّلَتْ واللهُ أَنْقَذَها
مِنْ حَياةِ البُؤْسِ والخَطَرِ
والرِّمَالُ الحُمْرُ أَبْدَلَها
جَنَّةً للبَدْوِ والحَضَرِ

(١) الفَيفي، سلمان، (٢٠٠٧)، مرافئ الحُبّ، تح. عبدالله بن أحمد الفَيفي (جازان: النادي الأدبي)، ٥٤-٥٦.

(٢) م.ن، ١١١- ١١٤.

aalfaify@yahoo.com
http://alfaify.cjb.net

◆ الرياض

لإبداء الرأي حول هذا المقال، أرسل رسالة قصيرة SMS تبدأ برقم الكاتب«٥١٥١» ثم أرسلها إلى الكود ٨٢٢٤٤